الفصل الأول

صورة عامة للحياة الاجتماعية والعلمية والأدبية

وصف سريع للحالة السياسية :

يعد هذا القرن من أخصب الفترات وأغناها بالتحولات على اختلاف أنواعها ، وهو بحق الخضم الذى كونته روافد الإرهاصات السابقة من سياسية واجتماعية وثقافية وعلمية . فمن الناحية السياسية شهد القرن الثانى حركة اضطرابات واسعة ومشاكل كثيرة واجهها الأمويون فى ثلثه الأول ، والعباسيون فى ثلثيه الآخرين ، فبعد خلافة عمر بن عبد العزيز التى يمكن عدها ظاهرة غريبة فى هذه الفترة أخذت عوامل الصراع تلعب دورها عند الخلفاء المتأخرين من بنى أمية على ولاية العهد، وأكثر ما يتضح هذا بين هشام بن عبد الملك وابن أخيه الوليد ، بالإضافة إلى رياح العصبية والفتنة التى أخذت تفوح فى أرجاء الدولة منذ تولى معاوية دفة الأمور . وبينما كان الأمويون فى غفلة أو شبه غفلة من أمرهم كانت تحاك خيوط انقلاب عباسى استغل فيه بنو العباس نقمة العناصر الأجنبية على الأمويين الذين غالوا فى تعصبهم للعرب. وما كاد الانقلاب العباسى يضع أوزاره ويكشف عن هويته ومنحاه حتى أخذت المشاكل طريقها ، فتعددت مصادرها من أموية وعلوية وخارجية وعباسية وأعجمية ، وقد تفاوتت فيما بينها قوة وضعفاً ، وكانت خاتمة المشاكل فى هذا القرن الصراع بين الأخوين : الأمين والمأمون الذى انتهى بمقتل الأول وتولى الثانى زمام السلطة .

ليس بغريب إذن أن تضطرب نتيجة لهذا الاضطراب السياسى الاتجاهات والميول فى الأوساط العامة والأدبية ، وليس بعجيب أيضاً أن تزلزل هذه الفترة أقدام الشعراء وتغيّر من مواقفهم أو تحرفها وتكشف عنها بحيث لا نكاد نجد شاعراً ذا لون خالص إلا فى القليل النادر من مثل أبى العباس الأعمى من الشعراء وعبد الحميد الكاتب من الكتّاب اللذين التزما بموقفهما من بنى أمية [1] ؛ وتبين الرواية التالية عن المنصور مدى التزام أبى العباس وولائه للأمويين ، صحب المنصور أبا العباس

---

(١) راجع : العامل السياسى فى أدب العصر العباسى الأول ، لأحمد الشايب ص ١٥ ثم انظر الصفحات : ٤ و ٥ أيضاً .

إلى الشام على حين كان يريد مروان بن محمد فى شعر قاله فيه ، فسأله المنصور أن ينشده ، فأنشده :

ليت شعرى أفاح رائحة المسـ ... ـك وما إن إخال بالخيف أنسى
حين غابت بنو أمية عنه ... والبهاليل من بنى عبد شمس
خطباءٌ على المنابر فُرْسا ... نٌ عليها وقالةٌ غيرُ خُرْس
لا يعابون قائلين وإن قا ... لوا أصابوا ولم يقولوا بِلَبْس
بحلومٍ إذا الحلوم استخفَّتْ ... ووجوه مثل الدنانير مُلْس

وتصادف أن لقى المنصور — بعد أن أصبح خليفة — أبا العباس على حين كان ذاهباً إلى الحج سنة إحدى وأربعين ومائة ، فأخذ بيده وسلم عليه وذكّره بأنه رفيقه إلى الشام لما كان متوجهاً إلى مروان . فقال أبو العباس :

آمَنْ نساءَ بنى أمية منهُمُ ... وبناتهُمْ بمضيعة أيتامُ
نامت جدودهم وأُسقِط نجمهُمْ ... والنجم يسقط والجدود نيام
خلت المنابر والأَسِرَّة منهمُ ... فعليهم حتى الممـــاتِ سلام

ولما عرّفه المنصور بنفسه قال « يا أمير المؤمنين أعذر فإن ابن عمك محمداً صلى الله عليه وسلم قال : جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها [1] » ومن الشعراء الذين لا يقلون عن أبى العباس موقفاً آدم بن عبد العزيز حفيد عمر بن عبد العزيز الذى عفا عنه السفاح [2] ، وهو القائل [3] :

وإن قالت رجال قد تولى ... زمانكم وذا زمن جديد
فما ذهب الزمان لنا بمجدٍ ... ولا حَسَب إذا ذُكر الجدود
وما كنا لنخلُد إذ ملكنا ... وأىُّ الناس دام له الخلود

(١) انظر : مروج الذهب ٣ / ٢٠٩ — ٢١٠ والأغانى ١٦ / ٢٩٩ — ٣٠٠ .
(٢) الأغانى ١٥ / ٢٨٦ .
(٣) البيان والتبيين ٣ / ٢٠١ .

وثمة شاعر آخر هو عبد الله بن عمر العبلى كان يحدب على الهاشميين فى عهد بنى أمية ، ويختلف مع الأمويين على أمور ، منها ما كان من سب على بن أبي طالب رضى الله عنه على المنابر حتى إنه خرج بسبب هذا من مكة إلى المدينة وقال[1]:

شرَّدوا بى عند امتداحى عليًا ورأوا ذاك فىَّ داءً دويًا
فوربى لا أبرح الدهر حتى تُختلى مهجتى بحبّى عليا
وبنيه لحب أحمد إنى كنت أحببتهم بحبي النبيا

ومنها ما كان عليه الأمويون من خلافات وفرقة قبل انهيار ملكهم ، فنعى عليهم ذلك وقال[2]:

شَرِكوا العِدا فى أمرهم فتفاقمت منها الفتون وفُرقت أهواؤها
ظلمت هناك وما يُعاتِب بعضها بعضاً فينفع ذا الرجاء رجاؤها

وقال :

لهفى على حرب العشيرة بينها هَلاًّ نهى جُهَّالَها حلماؤها
لما رأيت الحرب توقد بينها ويَشُبُّ نار وقودها إذْ كاؤها
نوهت بالملك المهيمن دعوةً وَرُواح[3] نفسى فى البلاء دعاؤها

ولكنه على الرغم من حبه للهاشميين ومآخذه على بنى أمية لم ينس الأمويين فى عهد بنى العباس ، فلما جيء به إلى المنصور وطلب إليه أن ينشده مما قال فى قومه حاول التملص ، ولكنه بعد إلحاح من المنصور وبعد أن أعطاه الأمان أنشد القصيدة التى منها الأبيات السابقة ومطلعها :

ما بال عينك جائلاً إقذاؤها شَرِقتْ بعَبْرتها فطال بكاؤها

---

(١) الأغانى ١١ / ٣٠٣ .
(٢) الأغانى ١١ / ٣٠٧ و ٣٠٨ وهى قصيدة طويلة .
(٣) الرواح : الارتياح والاستراحة .

فغضب المنصور وطرده وقال: « اخرج عنى لا قرّب الله دارك » فخرج حتى قدم المدينة فألفى محمد بن عبد الله بن حسن فخرج معه وبايعه[١] . ومما يدل على صدقه وإخلاصه ووفائه للأمويين قصيدته التى مطلعها :

تقول أُمامة لما رأت نشوزى عن المضجع الأَنْفس

حيث يكى فيها الأمويين وندب سلطانهم وتحسر على دولتهم وذكر قتلاهم وما حلّ بهم[٢]. وهناك جماعة من الشعراء وقفوا إلى جانب العباسيين وأيدوا حقهم فى الخلافة من مثل مروان بن أبى حفصة ومنصور النمرى والسيد الحميرى وأبى دلامة[٣]. وتحدث أحمد الشايب عن فئات مختلفة من شعراء هذه الفترة : فمنهم من ساير الدولتين معاً من مثل ابن المولى والحسين بن مطير وابن ميّادة ومطيع بن إياس وأبى حية النميرى وابن هرمة وأبى نخيلة . ومنهم من اضطرب بين العباسيين والعلويين من مثل محمد بن بشير ومحمد بن صالح العلوى وبشار بن برد والسيد الحميرى وغيرهم . ومنهم من اعتزل التيارات السياسية فخمل ذكره من مثل أبى الهندى وعُكاشة العمّى ومحمد بن حازم وربيعة الرّقى وغيرهم ، ومنهم من كانت له نزعات أخرى[٤].

الحياة الاجتماعية :

أما عن الحياة الاجتماعية فقد شهد القرن الثانى سلسلة من التحولات الاجتماعية غذتها عوامل متعددة ، من أهمها امتزاج حضارات الأمم المختلفة بعد الفتح الإسلامى وتأثر العرب بها وأخذهم عنها. وبدأت بوادر هذا التأثر واضحة منذ العصر الأموى فى الحجاز لظروف اقتضتها مصلحة الخلافة حيث شاع اللهو والترف فى المجتمع الحجازى وخلّف ثروة فى شعر الغزل كبيرة .

أول ما يطالع الباحث من التغييرات الاجتماعية ما تسجله المصادر التاريخية وغير التاريخية عن الخلفاء وأحوالهم وما كانوا ينعمون فيه من لهو وترف ومسرات ،

---

(١) الأغانى ١١ / ٢٩٤ – ٢٩٥ .

(٢) القصيدة فى الأغانى ١١ / ٢٩٨ – ٣٠٠ و ٤ / ٣٣٩ – ٣٤١ .

(٣) راجع أيضا : الشعر فى بغداد ٨٨ – ٩٧ واتجاهات الشعر فى القرن الثانى ٣٧٩ – ٣٨٦ .

(٤) العامل السياسى فى أدب العصر العباسى الأول ١٤ – ١٥ .

والرواية التالية تبين الفارق بين متقدمى الخلفاء الأمويين ومتأخريهم ممن وجدوا فى بداية القرن الثانى ، يقول صاحب (التاج) : « قلت لإسحق بن إبراهيم ، هل كان الخلفاء من بنى أمية يظهرون للندماء والمغنين ؟ قال : أما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد ، فكان بينهم وبين الندماء ستارة ، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة ، إذا طرب للمغنى والتذّه حتى ينقلب ويمشى ويحرك كتفيه ويرقص ويتجرد حيث لا يراه إلا خواص جواريه ؛ إلا أنه كان إذا ارتفع من خلف الستارة صوت ، أو نعير طرب ، أو رقص ، أو حركة بزفير تُجاوز المقدار ، قال صاحب الستارة : حسبك ياجارية ! كُفّى ، انتهى ، أقصرى ، يوهم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجوارى . فأما الباقون من خلفاء بنى أمية فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجردوا ويحضروا عراة بحضرة الندماء والمغنين ، وعلى ذلك لم يكن أحد منهم فى مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد فى المجون والرفث بحضرة الندماء والتجرد ، ما يبالى ما صنعا »[١] . يتضح من النص السابق أن الخلفاء المتقدمين كانوا يطربون ويستمعون إلى الندماء من وراء ستار ما لبث أن انزاح على عهد أحفادهم اللهم إلا عمر بن عبد العزيز الذى كان ظاهرة غريبة فى كل شىء ، فقد قيل عنه : ما طنّ فى سمعه حرف غناء ، ولم يشرب منذ أفضت الخلافة إليه إلى أن فارق الدنيا[٢] ، على العكس من يزيد والوليد بن يزيد فقد وُصف الأول أن دهره كان بين حالين : سُكْر وخمر ولا يوجد أبداً إلا ومعه إحدى هاتين[٣] . يضاف إلى هذا غرامه بسلاّمة القسّ التى اشتراها بثلاثة آلاف دينار فغلبت على أمره ، وولعه بحبّابة التى اشتراها بأربعة آلاف دينار[٤] ، حتى ليقال إنه مات جزعاً عليها بعد أيام قلائل[٥] ، مما دفع بروكلمان إلى الشك فى أكثر الروايات التى تتعلق به لأن عهده القصير

---

(١) التاج فى أخلاق الملوك ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ٣٣ و ١٥٢ .

(٣) المصدر نفسه ١٥٢ .

(٤) البيان والتبيين ٢ / ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٥) مروج الذهب ٣ / ١٣١ — ١٣٣ .

— كما يقول — ظل حافلا بضروب النشاط الجدى[١] .

أما الوليد بن يزيد فشخصيته ما اتصفت بشيء أكثر مما اتصفت بالخلاعة والمجون والتهتك ، فكان صاحب شراب ولهو وطرب ، وكان محبًّا للركوب والصيد والسباق[٢] ، ومهما كان أمره فى كل هاتيك الأمور فإن الباحث يقف فى حيطة وحذر أمام ما يقال عنه إنه « أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة »[٣] وقد سبق القدامى إلى الشك فى بعض ما نسب إليه ، فنفوا عنه أشياء وأثبتوا أخرى ، قال الذهبى : « لم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة ، بل اشتهر بالخمر والتلوط ، فخرجوا عليه لذلك »[٤] ولما ذكر عند المهدى وقال عنه أحد الحاضرين إنه كان زنديقاً ، قال له المهدى : « مه ، خلافة الله عنده أجل من أن يجعلها فى زنديق »[٥] ، وتابع بعض المحدثين من مستشرقين وعرب ما وصل إليه شك القدامى حول الأخبار التى تتعلق بالوليد ، فنالينو المستشرق الإيطالى يستغرب ويتعجب من كثرة ما نسب إلى شخص تولى الخلافة وتسلم زمام الحكم ، وأدى به استغرابه وتعجبه إلى القول بصعوبة الحكم المنصف على الوليد ؛ لأن أكثر ما وصل إلينا من سيرته وسير بنى أمية منقول من مؤلفات أعدائهم سواء من الشيعة أم من المنقطعين للعباسيين ، ولكنه مع هذا يعترف بتمادى الرجل فى الشرب واللذات والإفراط فيها[٦] . أما طه حسين فالوليد عنده لم يكن كما صوره خصومه ، كما أنه لم يكن كما يريد أنصاره تقيًّا صالحاً ، وإذا كان نالينو قد عزا هذا إلى أسباب سياسة خارجية — كما تقدم — فإن طه حسين يحصرها فى حدود المجال الجوى للأمويين ، فيذهب إلى أن هشاماً كان يريد البيعة لأبنائه لا للوليد فأخذ يشنع به ويغالى فى إسرافه فى اللهو والمجون ، ويضيف إلى هذا أن الوليد كان مضطهداً فى زمن هشام مما دفعه إلى التسلية عن نفسه « مما يناله به السلطان من المحن من جهة ،

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٨٣ .

(٢) مروج الذهب ٣ / ١٤٦ — ١٤٧ و ١٥٠ — ١٥١ ثم الطبرى ٩ / ٢ — ٣ و ٨ / ٢٨٨ .

(٣) تاريخ الخلفاء . للسيوطى ص ٢٥١ .

(٤) و (٥) المصدر السابق ص ٢٥١ أيضا .

(٦) تاريخ الآداب العربية ٢٧٤ — ٢٧٦ .

وليظهر نفسه مظهر الرجل الذى لا يريد أن يضعف ولا يستكين »[١] .

وإذا ما انتقلنا إلى الخلفاء العباسيين فى الفترة نفسها نجد أن الستارة نفسها ما زالت تحجب بين كل من السفاح والمنصور وندمائهما، وكان بين المنصور وبينها عشرون ذراعاً، وامتاز السفاح عن المنصور بأنه كان لا ينصرف النديم أو المغنى من عنده إلا بصلة ، أما المنصور فكان لا يثيب أحداً[٢] . ولذلك لا نستغرب كثرة ما خلف فى بيت المال عند وفاته ، فقد قيل إنه بلغ مئة ألف ألف درهم ، وستين ألف ألف درهم ، ولما تولى المهدى أخذ ينفق الأموال ويكب على اللذات والشراب وسماع الغناء . وقد ساعده على كل ذلك وزيره يعقوب بن داود حتى قال بشار :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا خليفة الله بين الزق والعود[٣]

واحتجب المهدى عن الندماء سنة تشبهاً بالمنصور ولكنه ظهر بعد ذلك غير آبه لنصح الناصحين ، لأن اللذة كانت تتمثل عنده فى مشاهدة السرور والدنو ممن يسره ، وكان كثير العطايا وافرها ، لذيذ المنادمة[٤] . ويبدو أن « الستارة » قد انزاحت بين الخلفاء والندماء والمغنين منذ عهد المهدى، وحتى هذه الستارة كانت تقليداً لعادة فارسية، يقول فون كريمر « وكان الخلفاء [فى] أثناء الاحتفالات الليلية يقلدون العادة الفارسية القديمة ، وعندما يأخذ المغنون والعازفون فى الغناء والطرب يجلسون خلف ستارة كانت تعلق فى وسط الحجرة وتفصلهم عن خدمهم والعازفين لهم ، على أن هذه العادة لم يتبعها جميع الخلفاء »[٥] .

أما الهادى فقد كان مبذراً للأموال[٦] ، وكان لا يحتجب عن ندمائه ولا عن المغنين ، وكان يكثر جوائزهم وصلاتهم ويواترها[٧] .

---

(١) حديث الأربعاء ٢ / ١٧٤ — ١٧٧ .
(٢) التاج فى أخلاق الملوك ٣٣ و ٣٤ .
(٣) الوزراء والكتاب ١٥٨ — ١٥٩ .
(٤) التاج فى أخلاق الملوك ٣٥ .
(٥) الحضارة الإسلامية ٩٣ .
(٦) التاج فى أخلاق الملوك ٣٦ — ٣٧ .
(٧) الأغانى ٥ / ١٨٤ ويواترها : يجعل بعضها تبع بعض .

وأما الرشيد فكان كثير الصلات والعطايا ، يقول عنه الجاحظ : « ومن خبَّرك أنه رآه قط وهو يشرب إلا الماء فكذبه ، وكان لا يحضر شربه إلا خاص جواريه »[١] . وقيل إنه أول من جعل للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أردشير ابن بابك أبو شروان ، وكانت جوائزهم توزع طبقاً لذلك التقسيم[٢] . وكان يبعثر الأموال بلا حساب ، إذ روى أنه اشترى (ذات الخال) جارية أبي الخطاب التي كان يتعشقها إبراهيم الموصلي بسبعين ألف درهم ، ولما علم منها ما كان بينها وبين إبراهيم وهبها إلى حمويه الوصيف[٣] . ويقال إنه طلب إلى حمويه مرة أن يسمع غناءها ، فاستعد حمويه للأمر واستأجر لها من بعض الجوهريين بَدَنة[٤] وعقوداً ثمينة ثمنها اثنا عشر ألف دينار ثم أخرجها إلى الرشيد فلما رآها أنكر ما رآه فصدقه الوصيف القول ، فبعث الرشيد إلى أصحاب الجوهر فاشتراه ووهبها إياه[٥] . ومما يروى عنه في هذا الشأن أنه وهب العباس بن الأحنف ألفي دينار على بيتين من الشعر قالهما في ذات الخال لما غضبت من الرشيد وقطعت خالها لأنها دعته فدخل عند جارية أخرى قبل أن يصل إليها[٦] . وروى أنه أعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قصيدة مدح ، وأعطى منصوراً النمري سبعين ألفاً في مرة[٧] ، وثلاثين ألفاً في مرة أخرى[٨] . كما أمر لكل من مروان وسلم الخاسر ومنصور النمري بمائة ألف درهم على قصائد قالوها ، ولما اعترض يحيى بن خالد وقال : « يا أمير المؤمنين ، مروان شاعرك خاصة قد ألحقتهم به ، قال : فايزد مروان عشرة آلاف »[٩] .

ونسبت إلى الرشيد ألعاب لعب بها لأول مرة ومن ثم شاعت تلك الألعاب

---

(١) التاج في أخلاق الملوك ٣٧ .
(٢) المصدر السابق ٣٨ — ٣٩ .
(٣) الأغاني ١٦ / ٣٤٢ .
(٤) البدنة : قميص لا كم له .
(٥) الأغاني ١٦ / ٣٤٣ .
(٦) المصدر السابق ١٦ / ٣٤٣ — ٣٤٤ .
(٧) المصدر السابق ١٣ / ١٤٣ .
(٨) المصدر السابق ١٣ / ١٤٤ .
(٩) المصدر السابق ١٣ / ١٤٥ .

بين الناس ، قال المسعودى : « وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان ورمى بالنشاب فى البُرْجاس [١] ، ولعب بالأُكْرة [٢] والطبطاب [٣] ، وقرّب الحذاق فى ذلك ، فعمّ الناس ذلك الفعل . وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بنى العباس ، والنرد وقدّم اللُّعاب وأجرى عليهم الرزق » [٤] ومما يدعم قول المسعودى من حيث شيوع أنواع اللعب السابقة بين أبناء الوجهاء والسراة ما سجله العباس بن الأحنف فى قصيدة طويلة وصف فيها الكرة والصولجان وتحدث عن اللعب بهما مع الأغنياء والمترفين [٥] .

أما الأمين فبلغ من تبذله أنه كان لا يبالى أين قعد ومع مَنْ ، وكان يكره الحُجب بينه وبين الندماء ، وكان مسرفاً مضيعاً للأموال حتى قيل إنه كان يعطى الكثير مقابل غناء يعجبه [٦] . وكان قصره يغص بالجوارى وبخاصة من النوع الذى عرف بالغلاميات [٧] .

ولم يكن بذل الأموال وتبذيرها وقفاً على الخلفاء فحسب ، وإنما شارك فيه كثيرون من غير الخلفاء من مسئولى الدولة وأمرائها . فأعطيات البرامكة وبذلهم للأموال وتبذيرها لمصطنعيهم كثيرة [٨] . وقيل إن الأمير يزيد بن مزيد الشيبانى ابن أخى معن بن زائدة ولد له ابن فجاءه الشاعر على بن الخليل مهنئاً وأنشده تسعة أبيات فى ذلك ، فأمر له يزيد عن كل بيت بألف دينار [٩] .

ومن المظاهر التى تلفت النظر فى القرن الثانى والعصر العباسى عامة كثرة الإماء فى قصور الملوك والأشراف ، وكانت الجوارى تظهر فى أحلى مظهر وأحسن

---

(١) البرْجاس : قيل إنها لفظة مولدة وهو غرض فى الهواء يرمى به .

(٢) الأكرة : فى الأصل الحفرة التى يجتمع فيها الماء فيغرف صافياً ، ومن العرب من يقول للكرة التى يلعبها أكرة ، وقيل إن اللغة الجيدة فيها الكرة .

(٣) الطبطابة : خشبة عريضة يلعب بها بالكرة ، وقيل يلعب الفارس بها بالكرة .

(٤) مروج الذهب (طبعة دار الرجاء بمصر . بلا تاريخ) ٤ / ٢٤٣ .

(٥) ديوان العباس بن الأحنف ٢٥٦ .

(٦) التاج فى أخلاق الملوك / ٤٣ .

(٧) مروج الذهب ٤ / ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٨) انظر فى هذا : العصر العباسى الأول — للدكتور شوقى ضيف ٤٧ .

(٩) الأغانى ١٤ / ١٨٠ .

صورة ويبرزون للناس[١]، ولا عجب إذا ما عرف أن أكثر أمهات الخلفاء كن من الإماء فيزيد بن الوليد كانت أمه فارسية ، ومروان بن محمد كانت أمه كردية ، وأبو جعفر المنصور كانت أمه بربرية ، أما الهادى والرشيد فكانت أمهما الخيزران رومية[٢] . وكانت أم المأمون فارسية ، وغيرهن كثير[٣]، ومن هنا جاز للجاحظ أن يقول عن أمهات خلفاء بنى العباس: « وليس من خلفاء بنى العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة ؛ السفاح والمنصور والأمين ، والباقون كلهم أبناء الجوارى »[٤]. وقد قُدِّرَ للجوارى من غير جوارى القصور أن يلعبن دوراً كبيراً على مسرح الحياة فى هذه الفترة وأن ينشرن ضروب اللهو والمتعة فى جنبات المجتمع فكن بذلك عاملاً مهماً من عوامل انتشار الأدب المكشوف والغزل الفاحش الفاضح كما سيأتى . وقد كان جو بغداد — على ما ورثته من أنماط الحضارة من البصرة والكوفة — مناسباً للإقبال على اللهو والملذات على اختلاف أنواعها ، إذ كان ثمة رخاء وكثرة أموال ، وحياة هدوء واستقرار بعد أن وطّد المنصور أركان الدولة التى ظلت على هذه الحال حتى أواخر القرن الثانى عندما شبت نار الفتنة بين الأمين والمأمون[٥] . ويرى أحمد عبد الستار الجوارى ، أن الحياة الحضارية التى ازدهرت فى بغداد لم تكن وليدة التأثير الحضارى نفسه وإنما ساعد عليها أيضاً ما انحدر إليها من عوامل من بقايا العراقيين القدماء ، وهو لا يستبعد أن يكون فى الحضارة الفارسية نفسها قبس من وادى الرافدين تأثر به الفرس ثم ردوه إلى العرب فى العراق[٦]. ولكنه مهما كان للحضارات القديمة من آثار فإن الأثر الفارسى كبير فى الحياة الاجتماعية . ومن مظاهره بالإضافة إلى ما تقدم شيوع العادات والتقاليد الفارسية فى حياة الناس وانتشارها فى العالم الإسلامى ، يقول أحد الباحثين: « وغلبت التقاليد

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ — نشر فنكل ٦١ .
(٢) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٢ .
(٣) انظر : ضحى الإسلام ١ / ١١ والعصر العباسى الأول ٥٨ .
(٤) المحاسن والأضداد ٢٩٩ .
(٥) انظر : الشعر فى بغداد — للجوارى ١٥٢ .
(٦) الشعر فى بغداد ١٥٣ — ١٥٤ .

الفارسية على حياة الناس فى العراق ، بل انتشرت فى العالم الإسلامى كله . . غلبت التقاليد الاجتماعية الفارسية فى كل ناحية تقريباً ، غلبت فى الأزياء فانتشرت القلنسوة الطويلة ، وضروب الأزياء الفارسية واتخذ القضاة القلانس العظام ، واتخذ الخلفاء العمائم على القلانس ، وتفننوا فى العمامة ونوعوها تبعاً للطبقات كما كان يفعل الفرس ، فللخلفاء عمة ، وللفقهاء عمة ، وللأعراب عمة ، ولكل مرتبة زى . . . وكان الشعراء يلبسون الوشى والمقطعات والأردية السود . . . »[١] .

وأصبح الزى الفارسى لباس البلاط الرسمى آنذاك بحيث جعل المنصور أغطية الرأس الفارسية لباساً رسمياً . وأخذ الخلفاء يقلدون فى البلاط عادات ملوك الفرس فى إدخال الثياب المزركشة بالنقوش الذهبية ، وكان منحها من حق الخليفة وحده[٢] .

وفى هذه الأمور قال الجاحظ : « ولكل قوم زىّ ، فللقضاة زى ، ولأصحاب القضاة زى ، وللشُرَط زىّ ، وللكُتّاب زى ، ولكتّاب الجُنْد زىّ . . . وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب : فمنهم من يلبس المبطّنة ، ومنهم من يلبس الدرّاعة[٣] ، ومنهم من يلبس القباء[٤] ، ومنهم من يلبس البازبكند[٥] و يعلق الخنجر ويأخذ الجُرْز[٦] ويتخذ الجُمّه[٧] .»[٨] .

وفى كتاب « الموشى » للوشّاء فصول ممتعة عن طبقة الظرفاء من رجال ونساء تكشف بحق عن « تقليعات» و « مودات » — كما فى تعبيرنا المعاصر — متعددة ومتباينة فى الأزياء والملابس على اختلاف أنواعها ، وتنبئ عما وصل إليه المجتمع من تقدم ورقى فى استعمالات الناس المختلفة وسبل عيشهم وأدواتهم وما كانوا يراعون من آداب اجتماعية شتى . فى أحد الفصول تحدث عما كان يلبسه الظرفاء رجالا

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر العباسى — لحسن أحمد محمود ٢٣٤ والنص منقول بتصرف عن الجاحظ فى البيان والتبيين ٣ / ١١٤ . ويراجع أيضا : العصر العباسى الأول ٢٤ — ٢٥ .

(٢) الحضارة الإسلامية — لفون كريمر / ٩٨ .

(٣) الدراعة : جبة فارسية .

(٤) القباء : ثوب فارسى قصير .

(٥) البازبكند : كساء يلقى على الكتف .

(٦) الجرز : آلة للضرب من حديد ، وقيل ضرب من السلاح .

(٧) الجمة : ما يسقط على المنكبين من الشعر .

(٨) البيان والتبيين ٣ / ١١٤ .

ونساء من الثياب وبيّن أنواعها منسوبة إلى بلدانها وأماكنها ، وكشف عن أن ما كان للإماء والقيان من النساء غير ما كان للحرائر[١] . وفى فصل آخر تحدث عما كان يلبسه الظرفاء من التكك والنعال والخفاف[٢] . كما خصّص فصلا للفصوص والخواتيم[٣] ، وفصلا لأنواع الطيب والعطور[٤] ، وفصلا للحلى والمنظوم[٥] . ثم تحدث الوشاء فى أماكن أخرى من كتابه عن عاداتهم فى الطعام وآدابه من تصغير اللقمة والترفع عن الشره والنهم والتقليل من الأكل والامتناع عن تناول بعض الأطعمة ، ومراعاة آداب خاصة حين الجلوس على المائدة بحيث لا يكثرون من الكلام والضحك ، ويلتزمون نظاماً معيناً فى المجىء إلى المائدة ومغادرتها . ويظهر من هذا الفصل أنه كان للعوام طعام غير طعام الخواص ، ومثله فى الخضار والفواكه[٦] . أما عن الشراب فعدد المؤلف ما كان يوافقهم وما لم يكن[٧] . وثمة فصل خصصه للكلام على أذواقهم فى الهدايا ، فبين أنهم كانوا يستلطفون أشياء وينفرون من أخرى[٨] . وتحدث فى فصل آخر عما كانوا يكتبونه على هداياهم وثيابهم . وكانت النساء والجوارى خاصة تكتب على الأقمصة والأردية والقلانس والأعلام عبارات الحب والشوق وربما الشكوى كالذى كانت تفعله عريب جارية بعض الهاشميين ، وجارية محمد بن عمرو بن مسعدة التى كتبت مرة على طراز ردائها :

أقل الناس فى الدنيا سروراً محب قد نأى عنه الحبيب[٩]

وكذلك كانوا يكتبون على الأقلام المهداة وعلى غيرها[١٠] . ومما يجدر ذكره أن الدكتور شوقى ضيف قد فصّل القول فيما يتعلق ببذخ الطبقات المترفة فى مطاعمها

---

(١) الموشى ١٦٠ – ١٦١ .
(٢) المصدر نفسه ١٦١ – ١٦٢ .
(٣) و (٤) المصدر نفسه ١٦٢ .
(٥) المصدر نفسه ١٦٥ .
(٦) الموشى ١٦٧ – ١٧١ .
(٧) المصدر نفسه ١٧١ .
(٨) المصدر نفسه ١٧٢ – ١٧٨ .
(٩) المصدر نفسه ٢١٩ ثم انظر أيضا ٢١٨ – ٢٢٦ .
(١٠) المصدر نفسه ٢٥١ .

ومشاربها وما يتعلق بهما ، وتحدث عن مظاهر الترف الأخرى من مثل سباق الخيل وسباق الحمام الزاجل وغيرهما ما يغنى عن التوسع فى الموضوع[١] . غير أنه لابد من القول أن زبيدة أم الأمين لعبت دوراً كبيراً على مسرح الحياة الاجتماعية بما اتخذته من وسائل الترف والتأنق فى المأكل والملبس والمشرب ومختلف أدوات العيش ووسائله حتى قيل إنها « أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر ، وصنع لها الرفيع من الوشى ، حتى بلغ الثوب من الوشى الذى اتخذ لها خمسين ألف دينار، وهى أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجوارى يختلفون على الدواب فى جهاتها ، ويذهبون فى حوائجها برسائلها وكتبها ، وأول من اتخذ القباب والمضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور (الفراء) والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق ، واتخذت الخفاف المرصّعة بالجوهر وشمع العنبر ، ومن ثم أخذ الناس والأغنياء منهم خاصة يتشبهون بأفعالهم بها »[٢] .

ومن التقاليد الفارسية الأخرى أن سار الناس فى عمرانهم وبناء دورهم على الطراز الفارسى فى العمارة والزخرفة ، وفى استعمال الأدوات والأوانى والموائد أيضاً[٣]. ومن التقاليد الفارسية ما كان يحتفل به الناس من أعياد الفرس من مثل النيروز والمهرجان والرام[٤] وقد ورد ذكر لهذه الأعياد فى شعر القرن الثانى ، قال إسماعيل بن عمّار يذكر النيروز :

رأيت صبيحة النيروز أمرا فظيعاً عن إمارتهم نهانى

كما أنه ذكر فى بيت آخر من القصيدة التى منها البيت السابق المهرجان والنيروز كذلك[٥] .

---

(١) يراجع : العصر العباسى الأول ٥٢ — ٥٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/٢٤٤ .

(٣) العالم الإسلامى فى العصر العباسى ٢٣٤ .

(٤) الحضارة الإسلامية — لشون كريمر ٩٨ والعالم الإسلامى فى العصر العباسى ٢٣٤ . والرام هو اليوم الحادى والعشرون من الشهر واسم الملك المهيمن على ذلك اليوم .

(٥) الأغانى ١١ / ٣٦٩ .

وذكر آدم بن عبد العزيز يوم المهرجان فقال[١]:

شربتُ على تَذكُّر عيشِ كسرى شراباً لونه كالزعفـــران
ورُحْتُ كأنني كسرى إذا ما علاه التاج يوم المهرجان

وذكره الثروانى مبيّناً فضله وشأنه فقال[٢]:

أتاك على الدخول المهرجان تُشيعه المعازف والقيـــان
لهذا اليوم فضل مستبينٌ على الأيام تعرفه وشأن
إذا وَقّرْتَه عظّمْتَ كسرى وأكرمك الشريف والهرمزان

وجاء ذكر لعيد الشعانين عند الثروانى نفسه حيث أشار إلى شعائر المسيحيين وعاداتهم فيه من شرب الخمر وتقلّد سعف النخل أو أغصان الخوص والزيتون وغيرها[٣].

كما ذكر الحسين بن الضحاك المهرجان فى شعره لمّا قال فى بعض الملوك[٤]:

سيبقى فيك ما يُهدى لسانى إذا فَنِيَتْ هدايا المهرجان
قصائد تملأ الآفاق ممّا أحل الله من بسط اللسان

أما يوم الرام فذكره أبو نواس مبيناً فضله على سائر الأيام إذ قال[٥]:

اسقنا إن يومنا يوم «رام» ولرام فضل على الأيام
من شراب ألذّ من نظر المعـ شوق فى وجـــه عاشق بابتسام

ولم يقتصر التحول فى الحياة الاجتماعية على أصحاب الجاه والسلطان ، بل تعداه إلى فئات أخرى من المجتمع ، وكان من جراء سيل الحضارة الطامى أن طغى تيار اللهو والمجون وكثر عدد المجان من الشعراء وغير الشعراء ، وقد ساعد عليه

(١) الأغانى ١٥ / ٢٨٩ .
(٢) الديارات ٢٣١ .
(٣) المصدر السابق / ١٧٧ .
(٤) أشعار الخليع ١١٣ .
(٥) أخبار أبى نواس — لابن منظور (طبعة بغداد) ٢ / ٣٥ .

كثرة الجوارى المتناهية بحيث عرف هذا العصر بيوتاً خاصة عرفت ببيوت القيان ، كانت تنتشر فى أكثر مراكز الدولة وكانت مسرحاً للهو والخلاعة والتهتك والمجون ، يلتقى فيها الرواد لقضاء لياليهم الحمراء الصاخبة ، وكانت لقيانها مع الشعراء وغير الشعراء روايات وأخبار سيأتى ذكرها .

ولكنه بالرغم من حياة الترف والنعيم التى تقدمت بعض صورها وأشكالها فإنها لم تكن تمثل إلا جانباً من جوانب المجتمع ، وهناك جانب آخر يتمثل فى ظاهرة البؤس والشقاء والفقر التى يقول فيها الدكتور شوقى ضيف : « وطبيعى أن يعم البؤس والشقاء من جانب ، بينما يعم النعيم والترف من جانب آخر ، بل لقد كان للشقاء والبؤس أكثر الجوانب فى الحياة العباسية ، فالجمهور يعيش فى الضنك والضيق لا الرقيق منه فحسب . . بل أيضاً جمهور الناس من الأحرار ، وكأنما كانوا جميعاً أرقاء فى هذا النظام الذى كفلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترف لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة »[1] . ولكن تلك الظاهرة الاجتماعية لم يعرها المؤرخون القدامى اهتمامهم ،ولا غرابة ، لأن جل اهتمامهم كاد ينصب على الطبقات والفئات الأرستقراطية من خلفاء وأمراء وولاة وقادة ومن اتصل بهم أو دار فى فلكهم . والباحث لا يجد فى هذه الظاهرة إلا الزاد القليل على مائدة المؤرخين ولكنه لا يعدم أن يجد ما يوضحها فى حياة القرن الثانى فى كتب الأدب وشعر الشعراء وربما فى بعض الروايات التاريخية . ففى الوقت الذى كانت تغدق فيه الأموال بلا حساب على المرتزقة والمتملقين من الشعراء وغيرهم ، وتنثر فى جنون وخيال على الجوارى والمغنيات وبنات المتعة فى قصور الخلفاء وبيوتات الوزراء وأولى الشأن وعند أصحاب بيوت القيان ، وفى الحانات والملاهى والأديرة ، كانت هناك فئات محرومة فقيرة وبيوت خالية خاوية ، فيها من البؤس والشقاء أكثره ، ومن الرخاء والنعيم والقوت أقله ، بحيث شهدت الحاضرة الإسلامية فى هذا العصر تفاوتاً كبيراً فى الطبقات وطرق المعيش حتى بانت الفاقة وكشف الفقر عن وجهه ، وليس أدل على هذا من وصف أحد الباحثين المحدثين فى قوله : « وانتشرت البطالة فى بعض المدن بين صفوف العامة خاصة بغداد ، وكان بعض

---

(١) العصر العباسى الأول / ٥١ .

أفراد من العامة يتجولون فى الأسواق بحثاً عن الرزق عن طريق النهب والسلب خصوصاً جماعات العيّارين الذين فشوا فى بغداد فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وكانوا يسيرون عراة الأجسام إلا مما يستر عوراتهم ، ويشدون على أوساطهم المقاليع القديمة يحملون الحقائب المليئة بالحصى والحجارة ولعبوا دوراً كبيراً فى الفتنة بين الأمين والمأمون »[١] وأشار أحمد أمين إلى تلك الظاهرة فقال : «لم تكن الدولة موزعة توزيعاً متقارباً ولا كانت الفروق بين الطبقات فروقاً طفيفة ، إنما كانت هناك هوات سحيقة بين الطبقات ، فكثير من مال الدولة ينفق على قصور الخلافة والأمراء ورؤساء الأجناد وعمال الدولة . . . . وعامة الشعب يفشو فيهم الفقر والبؤس»[٢] .

وقد عزا الدكتور شوقى ضيف ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد[٣] .

يبدو أن الأمور كانت مرهونة بالاتصال بالخلفاء وأولى الأمر أو بالابتعاد عنهم . فكلما كانت المسافة بينهم وبين الناس بعيدة كان للفقر مجال واسع ، أما إذا ما اقتربت فما على الفقر إلا أن يشد حيازيمه ويرحل . مثال هذا ما رواه الطبرى عن محمد بن عمر بن حفص صديق هشام الكلبى عن تغير حال هشام إلى الغنى والنعيم بعد فقر وفاقة لما اتصل بالمهدى ورد على كتاب أتاه من صاحب الأندلس ردّاً أعجبه إعجاباً كبيراً لما كان فى كتاب صاحب الأندلس من ثلب وقول غليظ[٤] . غير أن الطبقة البائسة الفقيرة لم تكن كلها كهشام ، فالخليل بن أحمد الذى كان زاهداً فى الدنيا معرضاً عنها رفض طلب سليمان بن على[٥] إليه لتأديب ولده ، إذ قيل إنه أرسل إليه رسولا يستدعيه لذلك الغرض ولما جلس الرسول أخرج إليه الخليل خبزاً يابساً وقال له : كلْ فما عندى غيره ، وما دمت أجده فلا حاجة

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر العباسى ٢٣٤ ثم انظر فى العيارين : الكامل لابن الأثير ٥ / ١٨٢ — ١٨٣ والطبرى ٧ / ١٣٦ — ١٣٧ .

(٢) ضحى الإسلام ١ / ١٢٧ .

(٣) العصر العباسى الأول / ٤٥ وانظر ٥١ أيضاً .

(٤) الطبرى ١٠ / ١٣ .

(٥) كذا فى نزهة الألباء ٥٧ ومعجم الأدباء ١١ / ٧٥ وزهر الآداب ٤ / ٩١٢ ، وقيل إنه سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى وكان والى فارس والأهواز . (وفيات الأعيان ٢/١٦) .

لى بسليمان ، وأنشده :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سَعَةٍ ... وفى غِنىً غير أنى لست ذا مال
سَخىّ بنفسى أنى لا أرى أحدًا ... يموت هزلا ولا يبقى على حال
والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

ولا يقل عن ذاك الموقف من لدن الخليل مرقف لأبى شراعة الذى سقطت داره ولم يستطع إصلاحها ، فلما عوتب على ذلك قال[1] :

تلوم ابنة البكرى حين أعُوبها ... هزيلا وبعض الآئبين سمين
وقالت : لحاك الله تستحسن العرا ... عن الدار إنَّ النائبات فنـــون
وحولك إخوان كرام لهم غنًى ... فقلت : لإخوانى الكرام عيون
ذرينى أُمُتْ قبل اختلال محلَّة ... لها فى وجوه السائلين غضون
سأفدى بمالى ماء وجهىَ إننى ... بما فيه من ماءِ الحياة ضنين

ومن نماذج الفقر فى القرن الثانى ذاك النبطى الذى مرّ به المهدى وهو خارج للصيد ومعه عمر بن بزيع وكانا جائعين ، ولما سألاه عما عنده من طعام قدم إليهما رُبَيْثَاء[2] وخبز شعير وزيتاً وبَقْلاً وكرّاثاً وبصلا ، فكان أن أمر له المهدى بثلاث بِدَر[3] . ورسم بعض الشعراء صوراً أمينة صادقة لحال الطبقة الفقيرة وهى وإن بدت شخصية ذاتية إلا أنها تدل بالضرورة على حالات كثيرة مماثلة لم يتسنّ لأصحابها التعبير عنها ولم تشأ المصادر التاريخية نقلها أو التحدث عنها ، وربما لم يكن يعلم بأكثرها غير أصحابها . وكان الشاعر البصرى أبو الشمقمق فى طليعة الشعراء فى وصف الفقر وحياة البؤس والشقاء ورسم الصور المتعددة لها وإن كان يخلط تعاسته وتعاسة أمثاله من أفراد الشعب بالفكاهة كما يقول الدكتور شوقى ضيف[4] ،

---

(١) الأغانى (ساسى) ٢٠ / ٣٧ .
(٢) الربيثاء : نوع من الطعام يتخذ من السمك الصغار .
(٣) الوزراء والكتاب ١٤٦ — ١٤٧ والبدرة : كيس فيه ألف وقيل عشرة آلاف درهم .
(٤) العصر العباسى الأول ١٤٠ .

ولأبى الشمقمق أبيات يصف فيها خلو بيته من كل شيء ، اللهم إلا من النوى والنخالة ولذلك هجرته الفئران وملّه السنوّر [١] . وله قصيدة أخرى وصف فيها بيته وقد خلا من جراب الدقيق والفخّارة مما دعا إلى ابتعاد الفئران ورحيل الذباب وإقامة السنور فيه محروماً من كل شيء مما حمل الشاعر فى نهاية القصيدة على إجراء حوار بينه وبين السنور طلب إليه فيه أن يرحل إلى مكان يستطيع العيش فيه كما فعل فى القصيدة السابقة[٢] . ولذلك لا نستغرب أن نجد أبا الشمقمق فى إحدى قصائده يحأر مُعلناً إفلاسه[٣] . وثمة شعراء آخرون غير أبى الشمقمق عانوا البؤس والفقر كثيراً من مثل محمد بن يسير [٤] ومحمد بن حازم الباهلى الذى كان يمنى النفس بالصبر ويدعوها إلى القناعة فى أبيات له [٥] . ومنهم الشاعر أبو فرعون العدوى الذى تحدث عن بيته كما تحدث أبو الشمقمق وقال إنه لم يكن يغلقه خوفاً من السرقة بل حياء من الناس ، فقال[٦] :

ليس إغلاقى لبابى أن لى ... فيه ما أخشى عليه السرقا
إنما أُغلقه كى لا يرى ... سوء حالى من يجوب الطرقا
مَنْزِل أوطنه الفقر فلو ... دخل السارق فيه سُرِقا

ووصف فى قصيدة أخرى صبيته الصغار مبيناً ما كانوا فيه من جوع وشر وعوز[٧] كما أعطى فى أبيات أخرى صورة أكثر وضوحاً لأسرته وما كانت تحيا فيه من حرمان وفاقة وإملاق ، قال[٨] :

إليك أشكو صبيـــة وأمهم ... لا يشبعون وأبوهم مثلهم
قد أكلوا اللحم ولم يشبعهم ... وشربوا الماء فطال شربهم

---

(١) شعراء عباسيون ١٤٢ .
(٢) شعراء عباسيون ١٣٨ .
(٣) المصدر السابق ١٤٦ .
(٤) الورقة لابن الجراح ١٢٠ والشعر والشعراء ٢ / ٨٨٠ .
(٥) الورقة / ١١٧ .
(٦) طبقات ابن المعتز ٣٧٧ .
(٧) طبقات ابن المعتز ٣٧٧ والورقة ٥٧ .
(٨) طبقات ابن المعتز ٣٧٨ — ٣٧٩ . والقصيدة فى الحسن بن سهل .

واتذقوا المَذْق فما أغناهم ... والمضغ إنْ نالوه فهو عُرْسهم[1]
لا يعرفون الخبز إلا باسمه ... والتمر هيهات ، فليس عندهم
وما رأوا فاكهة فى سوقها ... وما رأوها وهى تنحو نحوهم
زُعْر الرووس ، قَرِعت هاماتهم ... من البلا واستكّ منهم سمعهم[2]
كأنهم جناب أرض مُجْدب ... مَحْلٍ ،فلو يُعْطون أوجى سهمهم[3]
بل لو تراهم لعلمت أنهم ... قوم قليل رِيُّهم وشِبْعهم

وليس من شك أن أسراً كثيرة كانت تعانى ما عانته أسرة أبى فرعون . وعلى الرغم من حياة البؤس والفقر التى تحدث عنها الشعراء ووصفوها فلا نكاد نجد صيحات مباشرة طرقت أسماع المسئولين ، اللهم باستثناء الصيحة المدوية التى أطلقها أبو العتاهية وظل صداها يرن فى الآذان إلى اليوم ، وهى تعد بحق صيحة جريئة وبادرة حسنة فى نقد الوضع والحديث عنه بكل صراحة وجرأة ، ونقداً جريئاً للحكم فى تلك الفترة ، وتصويراً حيًّا لما كان عليه الناس والطبقات الفقيرة خاصة ، قال أبو العتاهية[4] :

مَنْ مُبلغ عنى الإمـــا ... م نصائحاً متواليهْ
إنى أرى الأسعار أسـ ... م عار الرعيـــة غاليهْ
وأرى المكاسب نَزْرةً ... وأرى الضرورة فاشيه
وأرى عموم الدهر را ... ئحة تمرُّ وغاديه
وأرى اليتـــامى والأرا ... مل فى البيوت الخاليه
من بين راجٍ لم يزل ... يسمو إليك وراجيـــه

(١) المذق : اللبن الممزوج بالماء ، وامتذق اللبن خلطه بالماء .
(٢) استك السمع : صم .
(٣) أوجى السهم : أخفق وفشل .
(٤) أبو العتاهية أشعاره وأخباره . وتحقيق شكرى فيصل ٤٤٠ .

يشكونَ مَجْهَدة بأصـ م واتٍ ، ضِعاف عاليه
يرجون رِفدك كى يَرَوْا مما لقوه العافيـه
مَنْ يُرتجى لدفاع كرْ بِ مُلمةٍ ، هى ما هيه !
مَنْ للبطون الجائعـا ت وللجسوم العاريه
يا ابن الخلائف لافُقِدْ ت ولا عَدِمْتَ العافيه
إن الأصول الطيبـا تِ لها فروع زاكيه
ألقيت أخبارًا إلي م لك من الرعية شافيـه

ومن النزعات والظواهر الاجتماعية التى بدت واضحة فى هذا القرن ؛ ونفضت عن نفسها غبار الخوف والوجل الشعوبية والزندقة .

فالشعوبية بعيدة الجذور فى المجتمع الإسلامى ، وليس ببعيد أن تمتد جذورها إلى مقتل الخليفة عمر بن الخطاب على أيد فارسية لئيمة ظنت أنه حرمها مما كانت تتمتع به ، أو أنه وقف فى طريقها وضدها[1] . ومما زاد فى نزعة الكره والحقد على العرب فى نفوس الموالى تعصب الأمويين للعرب وموقفهم من الموالى موقفاً يتنافى مع الدين ومبادئه ، ولا يعدم الباحث أن يسمع فى العهد الأموى صيحات لهؤلاء الشعوبيين ، وإن كانت صيحات الوجل الخائف المترقب ، ومن أمثلتها أشعار إسماعيل ابن يسار النسائى وأخويه محمد وإبراهيم ، ولم يكن الخلفاء الأمويون ليتجاهلوا تلك الصيحات أو يسكتوا عنها فما إن سمع هشام بن عبد الملك إسماعيل بن يسار يفتخر بأصله الفارسى وأعلاج قومه فى قصيدته الميمية المشهورة التى يقول فيها[2] :

إنى وجَدِّك ما عودى بذى خَوَرٍ عند الحِفاظ. ولا حَوْضِى بمهدومِ
أصلى كريم ومجدى لايُقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حَسَبٍ من كل قَرْم بتاج الملك معموم

---

(١) راجع أيضاً : مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى ، لنبيه حجاب ص ١٢٤ وما بعدها .
(٢) الأغانى ٤ / ٤٢٣ .

جحاجح سادةٍ بُلْج مرازبة جُرْدٍ عِتَاقٍ مساميح مطاعيم[١]
مَنْ مِثلُ كسرى وسابور الجنودمعاً والهُرْمُزان لفخرٍ أو لتعظيم؟[٢]
أُسْدُ الكتائبِ يوم الرَّوْع إن زحفوا وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون فى حَلَق المَاذِىِّ سابغةً مشيَ الضراغمة الأُسْد اللهاميم[٣]
هناك إنْ تسألى تُنْبى بأَن لنا جُرْثومةً قَهَرتْ عِزَّ الجراثيم[٤]

حتى أمر بغطه فى الماء حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بإخراجه ونفيه إلى الحجاز[٥] .

أما الخلفاء العباسيون فقد تساهلوا وغضوا الطرف عن صيحات الشعوبيين المدوية التى كان يطلقها بشار وغير بشار من الشعراء بلا وجل أو استحياء حتى إن المهدى نفسه كان يستمع إلى بشار وهو يفتخر بأهله فلا يغضب ولا تثور فيه سوْرة العربية التى لاحظناها عند هشام ، ولم يكتف بالسكوت بل شجع بشاراً فى الاستمرار بالإجابة عندما سأله: « فمن أى العجم أصلك ؟ » فأجاب بشار: « من أكثرها فى الفرسان وأشدها على الأقران ، أهل طخارستان »[٦]. وامتد سيل الشعوبية وطما فى هذه الفترة وكثر المنادون بها من الشعراء والكتاب والرواة من الموالى مما حدا بالدكتور يوسف خليف إلى تقسيمها إلى قسمين كبيرين[٧] : شعوبية مذهبية جادة يمثلها بشار ومن على شاكلته بكل وقاحة وجرأة ، بحيث لا يكاد

---

(١) جحاجح : جمع جحجح وهو السيد الكريم ، والمرازبة : جمع مرزبان وهو رئيس الفرس .
(٢) الهرمزان : الكبير من ملوك العجم .
(٣) حلق : جمع حلقة وهى هنا الدرع ، والماذى : الدرع السهلة اللينة والبيضاء .
اللهاميم : جمع لهميم وهو السابق الجواد من الخيل والناس .
(٤) الجرثومة : الأصل .
(٥) الأغانى ٤ / ٤٢٣ – ٤٢٤ .
(٦) الأغانى ٣ / ١٣٨ .
(٧) يراجع مقالة : (الشعر والحياة الاجتماعية فى القرن الثانى للهجرة) مجلة المجلة العدد (١١). نوفمبر ١٩٥٧ / ٨٢ – ٨٥ ثم ما بعدها .

يشم فيها رائحة لخوف أو حذر ، فيها سخرية واستهتار واحتقار للعرب ، وفخر ومضاهاة واعتزاز بالفرس حتى وصل الحد بأصحاب هذا القسم إلى تأليف الكتب فى مثالب العرب والانتقاص من قدرهم ، فقد ألف علان الشعوبى كتاب «الميدان فى المثالب»[١] وألف أبوعبيدة كتباً منها «لصوص العرب» و «أدعياء العرب»[٢] وألف الهيثم بن عدى كتاب «المثالب الصغير» و «المثالب الكبير» وغيرهما[٣]، كما يذكر ابن النديم كتباً أخرى ألفت فى مناقب العجم من مثل «انتصاف العجم من العرب» لسعيد بن حميد[٤] و«فضل العجم على العرب وافتخارها» لسعيد ابن البختكان[٥]، و «فضائل الفرس» لأبى عبيدة . أما القسم الثانى فشعوبية يقول عنها : «لم تكن فى الحقيقة سوى لون من ألوان اللهو والعبث التى انتشرت فى هذا القرن ويمثل هذا الاتجاه أبو نواس الذى لم تكن شعوبيته تعصباً للجنس الفارسى بقدر ما كانت تعصباً للحياة الفارسية التى ولد فى ظلها ونشأ بين أحضانها» .

أما الزندقة فظاهرة اشتد عودها فى هذا القرن ، وتعددت معانيها وليس من شأن هذا البحث استقصاء هذه المعانى ، إلا أنها كانت تهمة خطيرة جنّد المهدى والهادى والرشيد أنفسهم لملاحقة معتنقيها وأصحابها وتقصيهم ، وفى عهدهم وجدت وظيفة «صاحب الزنادقة» الذى كلف بهم ، ثم أنشئ «سجن الزنادقة» لاحتضانهم . وقد رمى عدد كبير من شعراء هذا القرن بالزندقة ، ذكر جماعة منهم أبو الفرج رواية عن الجاحظ[٦] ، وذكر صاحب الأمالى جماعة أخرى[٧] .

يبدو أن عوامل كثيرة تدخلت فى أن يرمى عدد كبير من الشعراء بالزندقة غير العلمية — كما يسميها أحمد أمين — الزندقة التى يمكن أن يوصف أصحابها باللاهين

---

(١) الفهرست ١٥٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٨٠ .
(٣) المصدر نفسه ١٤٥ و ١٤٦ .
(٤) المصدر نفسه ١٧٩ .
(٥) المصدر نفسه ١٧٩ .
(٦) الأغانى ١٦ / ١٤٨ — ١٤٩ (ساسى) ثم انظر : الأمالى (للمرتضى) ١/ ١٣١ رواية عن الجاحظ .
(٧) أمالى المرتضى ١ / ١٢٧ — ١٤١ .

والمجان والعابثين والظراف ، وهذه العوامل إما شخصية كالذى كان بين بشار وحماد عجرد[١] ، وإما دينية سياسية[٢] ، يقول أحمد أمين : « الحق أن بعض الناس اتخذوا الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم سواء فى ذلك الشعراء والعلماء والأمراء والخلفاء ، وأخشى أن يكون قد رمى بها أناس كثيرون صحّت عقيدتهم ولكن كانت لهم حرية رأى فى بعض المسائل خالفوا فيها جمهور العلماء فشهروا بها »[٣] ومن الزنادقة المجان آدم بن عبد العزيز الذى كان يكثر من الشرب فيقول الشعر ويتفوه بأبيات فيها إساءة للدين كقصيدته التى يقول فيها :

اسقنى واسقِ خليلى فى مدى الليل الطويل
لونها أصفر صافٍ وهى كالمسك الفتيل

ومنها :

مَنْ يَنَلْ منها ثلاثاً يَنْسَ منهاج السبيل
قل لمن يلحاك فيها من فقيه أو نبيـــل
أنت دعها وارجُ أخرى من رحيق السلسبيل

ويقال إن المهدى أخذه وضربه ثلاثمائة سوط ليعترف بزندقته ، فما زاد على أن قال : « والله ما أشركت بالله طرفة عين ، ومتى رأيت قرشيًّا تزندق ؟ ولكنه طَرَبٌ غلبنى وشعر طفح على قلبى فى حال الحداثة فنطقت به »[٤] ثم قال : « كنت فتى من فتيان قريش أشرب النبيذ وأقول ما قلت على سبيل المجون ، والله ما كفرت بالله قط ولا شككت فيه »[٥]. ومنهم محمد بن زياد الذى قال فيه ابن مناذر[٦] :

يا ابن زياد ، يا أبا جعفر أظهرت ديناً غير ما تخفى

---

(١) الأغانى ١٤ / ٣٢٤ – ٣٢٥ .
(٢) انظر : ضحى الإسلام ١ / ١٥٦ – ١٥٧ .
(٣) المرجع السابق ١ / ١٥٨ .
(٤) الأغانى ١٥ / ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
(٥) الأغانى ١٥ / ٢٨٨ .
(٦) الأغانى (ساسى) ١٧ / ١٥ .

مزندق الظاهر باللفظ فى باطن إسلام فتىً عَفّ
لست بزنديق ولكنما أردت أن تُوسَم بالظرف

ومنهم مطيع بن إياس الذى نفى عنه المهدى نفسه تهمة الزندقة بمفهومها الصحيح حين قال: « أما الزندقة فليس من أهلها، ولكنه خبيث الدين ، فاسق ، مستحل للمحارم »[١]. غير أن المرتضى يرميه بالزندقة لصحبته لجماعة عرفوا بها من مثل ابن المقفع وبشار بن برد والحمادين الثلاثة ويحيى بن زياد وغيرهم[٢]، وفيهم يقول أبو الفرج إنهم كانوا « يتنادمون ولا يفترقون ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملك ، وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة »[٣] ومن أكثرهم شهرة حماد عجرد الذى قال عنه أبو نواس: « كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما رمى بالزندقة لجونه فى شعره حتى حبست فى حبس الزنادقة فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم »[٤].

وممن اتهموا بالزندقة على بن الخليل الكوفى الذى كان يعاشر صالح بن عبد القدوس وأخذ معه ، فدخل علىّ على الرشيد وهو جالس للمظالم بالرقة ثم أنشده قصيدة فى مدحه وأخذ يبرئ نفسه من تهمة الزندقة ، قال :

إنى إليك لجأت من هرب قد كان شردنى ومن لَبْس
واخترت حكمك لا أجـاوزه حتى أُوسّد فى ثرى رمْس

إلى أن وصل إلى قصده من القصيدة فأخذ فى نفى التهمة :

ما ذاك إلا أننى رجل أصبو إلى بَقَر من الإنس
بَقَر أو أنيس لا قرون لها نُجْل العيون نواعم لُعْس[٥]

---

(١) الأغانى ١٣ / ٣١٧ .
(٢) الأمالى ١ / ١٢٨ .
(٣) الأغانى ١٣ / ٢٧٩ ثم انظر : الحيوان ٤ / ٤٤٧ – ٤٤٨ .
(٤) الأغانى ١٤ / ٣٢٤ .
(٥) اللعس : سواد يعلو شفة المرأة البيضاء ، وقيل سواد فى حمرة .

رَوْع العبير على ترائبها يُقْبلنَ بالترحيب والخلْس[١]
وأشاهد الفتيان بينهم صفراء عند المزج كالورس
للماء فى حافاتها حبَب نُظُم كَرَجْم صحائف الفرس[٢]
والله يعلم فى بقيته ما إن أضعت إقامة الخمس[٣]

فأطلقه الرشيد ، وكتب إلى حمدويه ألا يعرض له ، ولكنه قتل صالح بن عبد القدوس لقوله :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رَمْسه[٤]

وهناك جماعة من الزنادقة لقوا مصيرهم المحتوم غير صالح ، كابن المقفع الذى رأى فيه المهدى أنه ما وجد كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع[٥]، وبشار ابن برد ، وإن كان الجهشيارى — كما يستشف من كلامه — يرى أن الزندقة لم تكن السبب الرئيسى فى مقتله ، وإنما السبب الأهم هجاؤه لصالح بن داود لما ولى البصرة ، ولأخيه يعقوب بن داود . فلما قال بشار فى صالح :

هُمُ حملوا فوق المنابر صالحاً أخاك فضَجّتْ من أخيك المنابر

ولما بلغ الشعر يعقوب دخل على المهدى وأخبره أن بشاراً قد هجاه — أى المهدى — وطلب منه أن يعفيه من إنشاد ما قال بشار ، فلما ألحّ المهدى عليه أنشده :

خليفة يزنى بعماته يلعب بالدبوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره ودس موسى فى حَر الخيزران

---

(١) روع : أثر الطيب فى الجسد. العبير : أخلاط من الطيب ، الترائب : ما ولى الترقوتين ، ومفردها تريبة .
(٢) الحبب : الفقاقيع .
(٣) بقية الله : طاعته وانتظار ثوابه .
(٤) انظر خبر على وقصيدته فى : الأغانى ١٤ / ١٧٤ — ١٧٧ ثم أمالى المرتضى ١ / ١٤٦ — ١٤٧ مع اختلاف فى رواية الأبيات ، وانظر فى مقتل صالح أيضاً : نكت الهميان ١٧١ و ١٧٢ .
(٥) أمالى المرتضى ١ / ١٣٥ .

فأمره المهدى أن يوجه فى حمله ، فخاف يعقوب أن يقدم بشار على المهدى فيمدحه ويعفو المهدى عنه ، فوجّه إليه من ألقاه فى البطائح ، وقيل قتله فى الطريق[١]. وأورد أبو الفرج هذه الرواية[٢] ، ورواية أخرى تتفق مع الأولى فى مكيدة يعقوب لبشار عند المهدى ، إلا أنها تختلف عنها فى أن المهدى خرج بنفسه إلى البصرة ليشهد مقتله[٣] . وممن قتل من الزنادقة أيضاً عبد الكريم بن أبى العوجاء[٤] وغيره[٥].

ويستفاد مما يرويه المسعودى أن المهدى لم يكتف بالقتل سلاحاً مع الزنادقة وإنما لجأ إلى وسيلة أخرى ، فهو أول من أمر الجدليين والمتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين ومجادلتهم وإقامة البراهين على المعاندين وإيضاح الحق للشاكين[٦].

أثرت هاتان النزعتان فى الأدب فى هذه الفترة وأكثر ما يتضح هذا الأثر عند الشعراء من غير العرب وإن كنا لا نعدم أن نجد أثر الزندقة عند بعض الشعراء العرب كمطيع بن إياس ووالبة وغيرهما[٧] ، ويرى على الزبيدى أن كان لهما أثر أبعد من هذا ، يقول : « إن معركة الزندقة والشعوبية لا بد أنها كانت باعثاً كبيراً على وضع الأخبار والعبث بالروايات ، وفى أخبار بشار وأبى العتاهية . . . وغيرهم من الشعراء روايات كثيرة لا تصمد أمام النقد التاريخى الصحيح »[٨] ثم يرى أن قسماً كبيراً من النتاج الأدبى قد ضاع بسببهما ، يقول : « فأدب الزنادقة من شعر ونثر طردته الدولة لا فى زمن المهدى والهادى والرشيد فقط ، بل فى أثناء القرون التالية لهم أيضاً ، والظاهر أن قسماً من هذا الأدب الزنديق قد أفلت من الاضطهاد وعاش حتى القرن الرابع للهجرة »[٩].

---

(١) الوزراء والكتاب ص ١٥٨ .
(٢) الأغانى ٣ / ٢٤٥ .
(٣) الأغانى ٣ / ٢٤٣ – ٢٤٤ ثم انظر ١٤ / ٣٨٠ .
(٤) لسان الميزان لابن حجر ٤ / ٥١ .
(٥) انظر : تاريخ الطبرى ١٠ / ١٠ على سبيل المثال .
(٦) مروج الذهب ٢ / ٤٠١ .
(٧) الحياة الأدبية فى البصرة ص ٤٠٥ .
(٨) فى الأدب العباسى ص ١٥٨ .
(٩) المصدر السابق ١٣٦ .

وليس هذا غريباً فى فترة طورد فيها الزنادقة ولاحقتهم الدولة متقصية أخبارهم فقتلت الكثيرين منهم . فكيف لا يهمل إذن أو يتلف الكثير من إنتاجهم وهو أخطر بكثير من ذلك الشعر الذى كان بين شعراء المسلمين وشعراء الكفار فى صدر الإسلام الذى لم يصل إلينا منه إلا أقله بحيث تعمد الرواة إهماله وإتلافه وطمس معالمه . هل تراهم أو قل بعضهم — على الأقل — يجرؤ على احتضان إنتاج يعاقب صاحبه بالموت العاجل إذا ما ثبتت زندقته ؟ ! .

وإذا ما أخذنا بأحد القوانين الطبيعية من أن لكل فعل رد فعل نجد أن ردّ فعل قوياً تحرك فى النفوس ولّدته حياة اللهو والمجون والعربدة والزندقة ، فاتجه بعض الشعراء وغير الشعراء إلى تيار آخر هو تيار الزهد الذى أضاء مصابيحه من جديد وقاده فى هذا القرن الشاعر أبو العتاهية الذى سار فى تيار معاكس للتيارات السابقة التى حللت المحرمات وغاصت فى الضلالة والغواية إلى قدميها[1].

الحياة العلمية والأدبية والعقلية :

كما شهد القرن الثانى حركة ازدهار حضارى : شهد حركة ازدهار علمى وثقافى وعقلى فكان عصر امتزاج ثقافى كما كان عصر امتزاج وتوليد اجتماعى ، لعبت فيه الثقافات المختلفة من فارسية ويونانية وهندية وغيرها أدواراً متفاوتة إلى جانب الحركة العلمية العربية التى أخذت فى الظهور منذ نهاية القرن الأول الهجرى فى البصرة والكوفة اللتين ظلتا تشاركان فى النهضة العلمية والأدبية طيلة القرن الثانى ، كما أنهما كانتا الركيزتين اللتين ارتكزت عليهما بغداد عند ظهورها فى القرن الثانى فقامت بينها وبين كل منهما صلات وعلاقات متفاوتة فى هذا الخصوص[2] وفى هذا القرن أخذت تتفتح أزاهير النشاط العلمى لاستقرار الفاتحين فى الحواضر التى فتحوها[3] . وكانت الحركة العلمية تسير فى اتجاهين :

الأول : يهتم بالنواحى العلمية ونقل الآثار الأجنبية فى اللغات الأخرى إلى العربية .

---

(١) يراجع فى تيار الزهد : العصر العباسى الأول للدكتور شوقى ضيف ٨٣ — ٨٨ .

(٢) حياة الشعر فى الكوفة ١ / ٢١٤ .

(٣) روح السلام — لسيد أمير على ٣٤٩ .

والثانى : يهتم بالتراث العربى وجمعه وتدوينه والتأليف فيه ، وقد شمل الشعر والنثر والعلوم الدينية واللغة والنحو والتاريخ .

فى الاتجاه الأول كان أكثر المشتغلين من غير العرب مما شجع الدكتور يوسف خليف على القول بأنهم إنما أرادوا أن يثبتوا وجودهم فى المجتمع الذى لم يكن يعترف بهم ، فكان نشاطهم ردًّا فعليًّا وعمليًّا أوصلهم إلى فرض أنفسهم على العرب ، ومن ثم إلى أن يحظوا باهتمامهم وتقديرهم وبخاصة فى الأوساط العلمية والدينية[١] . وقد كانت إرهاصات هذا الاتجاه فى العهد الأموى وأوائل القرن الثانى وأشار إليها عدد من الباحثين ، فخردابخش صاحب كتاب (الحضارة الإسلامية) يعارض بشدة ما ذهب إليه سيد أمير على صاحب (روح الإسلام)[٢] ويرى أنه مخالف للحقائق التاريخية ، ويذهب إلى أنه لو لم يكن للأمويين إلا احتضان العلوم الإسلامية فى مهدها لكفاهم فخراً ، ويدلل على رأيه فى أن معاوية بن أبى سفيان نفسه كان يرحب فى بلاطه بالطبيب المسيحى ابن أثال الذى ترجم له كتباً فى الطب إلى اللغة العربية ، كما بعث فى طلب (عبيد) الذى قدم من صنعاء إلى دمشق ليقص عليه تاريخ ملوك اليمن ويصوغها فى قالب علمى ، ومن ثم ينتهى إلى الحديث عن خالد بن يزيد وجهوده العلمية كما ذكرتها الكتب القديمة[٣] . أما (ليفى د للافيدا) فبعد أن أرّخ لازدهار المدنية الإسلامية فى النصف الثانى من القرن الثانى فى الدين والعلوم والفنون خرج بالنتيجة التالية ، فقال : «وهذا يدل دلالة واضحة على أن انتقال العرب من سذاجة البدوة إلى المدنية لم يكن موقوتاً بمجيء بنى العباس ، بل إنه بدأ قبل ذلك »[٤] .

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة ١ / ٢١٠ .

(٢) يقول سيد أمير على : « ظل العرب طوال العهد الأموى يشكلون العنصر السائد فى طبقة الأرستقراطية العسكرية بين سكان البلاد الخاضعة لهم ، وكان معظمهم منشغلين فى المهمات الحربية . أما تحصيل العلوم والمعرفة فقد ترك للهاشميين وأحفاد الأنصار المشبوهين فى نظر الدولة» . ص٣٤٩ . ويقول أيضاً : «وقد كان بأمر المنصور أن ترجمت مختلف المؤلفات الأدبية والعلمية من اللغات الأجنبية إلى العربية لأول مرة منذ أن جاء الإسلام » ص ٣٥٣ .

(٣) الحضارة الإسلامية — خودابخش ١٥١ — ١٥٢ ثم انظر ١٥٦ أيضا .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) — بنوأمية — ٦٧٩ .

وكذلك ذهب كل من أحمد أمين[١] والدكتور شوقى ضيف[٢] إلى أن حركة النقل والترجمة أخذت طريقها منذ زمن الأمويين وإن كانت ضيقة . وفيما تقدم أدلة على إرهاصات الحركة العلمية فى العهد الأموى بخلاف ما ذهب إليه سيد أمير على وماكس مايرهوف الذى يقول عن عمر بن عبد العزيز : « ولكننا لا نعلم هل كانت لديه أية ميول إلى العلوم وعناية بها ؛ فمثل هذه الميول وتلك العناية كانت تعوز الأمويين عامة وليس للمرء أن يتوقع هذا من أناس جاءوا من الصحراء والبادية ولا يستثنى منهم إلا الأمير خالد بن يزيد »[٣] . وإذا ما تخطينا خالد ابن يزيد واهتمامه بالصنعة وما يذكره عنه ابن النديم[٤] إلى عمر بن عبد العزيز نجد أن اهتمامه بالنواحى العلمية كان منذ ولايته على مصر فى خلافة سليمان ابن عبد الملك، ويقال إن ما سرجويه ترجم له كتاب أهرن القس فى الطب عن السريانية . وفى عهد هشام — كما يقول ابن النديم — نقل سالم كاتبه بعض رسائل أرسطو إلى العربية[٥] .

وليس من شك فى أن نضج الحركة العلمية بدا جلياً فى القرن الثانى وكان أكثر المشاركين فيه — كما تقدم — من الأجانب الذين أرادوا أن يثبتوا وجودهم ، بالإضافة إلى ما منوا به من تشجيع الخلفاء وغيرهم من المسئولين منذ عهد المنصور[٦] الذى تم فى عهده أول اتصال بين بلاط بغداد وأسرة بختيشوع ممثلة فى الطبيب جرجيس الذى استدعى ليعالج المنصور من مرض أصابه ، ومن ثم لعبت تلك الأسرة دوراً فى تاريخ الثقافة العربية[٧] . واهتم الخلفاء بعد المنصور بالحركة العلمية بمختلف أشكالها وخاصة فى عهد كل من الرشيد والمأمون ، فقد أنشأ الأول بيت الحكمة وأمده الثانى بكل المقومات والوسائل التى ضمنت نجاحه وقوته . وقصة المأمون مع ملك الروم مشهورة عندما طلب إليه المأمون إنفاذ ما عنده من مختار العلوم القديمة

---

(١) ضحى الإسلام ١ / ٢ .
(٢) العصر العباسى الأول / ١٠٩ .
(٣) التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية — ترجمة عبد الرحمن بدوى — / ٦٩ .
(٤) الفهرست / ٤٩٨ .
(٥) المصدر السابق / ١٧١ .
(٦) يراجع فى هذا : العصر العباسى الأول / ١١٠ وما بعدها .
(٧) O'Icary, How Greek science Passed to the Arabs, P. 149.

المخزونة فأجاب بعد امتناع ، وكان أن أخرج المأمون لذلك الغرض حملة علمية كبيرة[١] .

تعددت مصادر الترجمة إلى العربية ، ففى كتاب الفهرست أسماء كثيرة للنقلة والمترجمين من مختلف الثقافات والألسن إلى العربية ، فثمة ثبت بأسماء المترجمين من الفارسية من مثل ابن المقفع وآل نوبخت ، والحسن بن سهل وغيرهم[٢]. وآخر بالمترجمين عن الهندية والقبطية واليونانية والسريانية[٣]. وكان من أشهر المترجمين عن اليونانية يوحنا بن ماسويه ، وإسحق بن حنين ، وقسطا ابن لوقا. وكانت أكثر الكتب المترجمة عن الأمم الأخرى علمية وفلسفية وتاريخية[٤]. وفى كتاب (تاريخ التمدن الإسلامى) لجرجى زيدان قوائم طويلة بأسماء الكتب التى ترجمت إلى العربية عن اليونانية والفارسية والهندية والقبطية وغيرها فى مختلف الفنون والمرضوعات[٥]. وعن زيدان نقل الرفاعى فى كتابه (عصر المأمون)[٦].

أما الاتجاه الثانى وهو حركة التأليف فقد بدأ مبكراً منذ أواخر العصر الأموى فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والتاريخية وغيرها[٧] . وقد ذكر السيوطى جمهرة من علماء المسلمين ممن وضعوا مؤلفات فى الأحاديث والفقه وتفسير القرآن واللغة والتاريخ وأيام الناس[٨] . وشهد القرن الثانى عدداً من علماء النحو واللغة من مثل عيسى ابن عمرو الثقفى ، وأبى عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد ، والأخفش ، وسيبويه ويونس ابن حبيب من أئمة البصرة . ومن مثل أبى جعفر الرؤاسى ، والكسائى ، والفراء من أئمة الكوفة . وكان لعلماء كل مصر من هذين المصرين منهج خاص . فبينما اهتم البصريون بإخضاع النحو لأصول ومقاييس فلسفية ومنطقية وجدلية ابتعد

---

(١) الفهرست ٣٣٩ – ٣٤٠ .
(٢) المصدر نفسه ٣٤٢ .
(٣) المصدر نفسه ٣٤٢ و ٤٢١ .
(٤) انظر على سبيل المثال : الفهرست ٣٠٩ – ٣١٠ ، ٤١٠ – ٤١١ ، ٤١٢ و ٤١٥ .
(٥) تاريخ التمدن الإسلامى ٣ / ١٧١ – ١٨٢ .
(٦) عصر المأمون ١ / ٣٨١ – ٣٩٥ .
(٧) يراجع فى هذا الموضوع الفصل القيم الذى كتبه الدكتور شوقى ضيف فى العصر العباسى الأول ١١٨ – ١٣٧ .
(٨) تاريخ الخلفاء – للسيوطى ٢٦١ .

الكوفيون عن هذا المنهج واعتمدوا الأصول النقلية أكثر ما اعتمدوا .

وفى القرن الثانى أيضاً انتخبت المفضليات والأصمعيات وغيرها . أما التاريخ فكان من أعلامه محمد بن إسحق صاحب (السيرة) الذى اختصره ابن هشام فى كتابه المعروف بالسيرة النبوية . وكان محمد بن عمر الواقدى الذى ألف كتاب التاريخ الكبير وعليه اعتمد الطبرى حتى حوادث عام ١٧٩هـ ولكنه لم يصل إلينا . ويرى أحمد شلبى أن ما وصل إلينا من علم الواقدى قليل وأن بعضه جاء عن طريق كاتبه محمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى[١] .

يشبه أحمد أمين النشاط العلمى فى هذه الفترة بفرق الجيش وكتائبه حيث تخصصت كل فرقة فى ناحية معينة ، وأخذت الفرق جميعاً تتسابق فى الغزو والانتصار وتدوين العلم كتسابقها فى الفتوح والغزوات[٢] . وقد ساعد على ازدهار الحركة العلمية والأدبية ونشاطها عوامل كثيرة من أهمها تشجيع الخلفاء والمسئولين للعلماء والإكثار من الصلات والمكافآت لهم . روى أن المهدى كان يأتيه العلماء من كل بلدة[٣] . وأن الرشيد وصل الأصمعى مرة بمائة ألف درهم[٤] . وكذلك كان الأمر بالنسبة للمأمون عندما أمر للنضر بن شميل مرة بخمسين ألف درهم[٥] . وكانت للخلفاء مجالس خاصة، يتناظر فيها العلماء بين أيدهم[٦]. وكانت ثمة مجالس غير مجالس الخلفاء أشبه بحلقات وندوات يعقدها العلماء والشعراء فى بيوتهم من مثل الندوة التى كان يعقدها فى البصرة ستة من أصحاب الكلام هم : عمر وابن عبيد وواصل بن عطاء وبشار بن برد وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الكريم ابن أبى العوجاء ورجل من الأزد[٧] وكان من أسبابها أيضاً انتشار الرقة والوراقين انتشاراً أدى إلى تسهيل عملية الكتابة والتدوين والتقييد[٨] .

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ٣ / ٨٦ – ٨٧ .
(٢) ضحى الإسلام ٢ / ١٩ .
(٣) أنباه الرواة ٢ / ٣٥ .
(٤) المصدر السابق ٢ / ٢٠١ .
(٥) المصدر نفسه ٣ / ٣٥١ .
(٦) المصدر السابق ٢ / ٢٧١ . (٧) الأغانى ٣ / ١٤٦ .
(٨) للتوسع فى أسباب ازدهار الحركة العلمية يراجع : ضحى الإسلام ٢ / ١٣ وما بعدها والعصر العباسى الأول / ١٠٢ – ١٠٩ .

وأما الحياة العقلية فيرجع الفضل فيها إلى أصحاب الفرق والمعتزلة خاصة ، فقد كانت البصرة بيئة خصبة لأكثر مدارسها إذ شهدت كثيراً من المناظرات والمجادلات فى أمور شتى ما لبثت أن انتقلت إلى بغداد . أما الكوفة فكانت مدينة لا فلسفية بالعكس من البصرة مدينة العلم والفلسفة ، ولذلك كان لكل منهما لون من الثقافة يختلف عن الآخر[١] والجدير بالذكر أن نشاط المعتزلة قد ازداد ، وعودها قد اشتد لما قاد حركتها الخليفة المأمون نفسه . وكان للبصرة دَوْر كبير فى نشر الحياة العقلية عن طريق دُورها المتعددة ومربدها ، ومساجدها ، وحلقاتها الكثيرة[٢] . وعن طريق الثقافات المتعددة والاحتكاك الذى نشأ عن اختلاط العرب بغيرهم مما أدى إلى تلبد الجو بسحب كثيفة من النظر الفلسفى والشك والبحث فى المسائل الكونية وغيرها ، يقول أحمد كمال زكى : « فلقد كان العقل البصرى الفذ وليد ذلك التعارض الشديد بين الإسلام وما عداه ، وهل مندوحة عن احتكاك العقليات لتكوين الآثار التى تتاح لها أن تبقى على مر العصور ؟ إن العقل الكبير نتاج طبيعى لتلاقى الثقافات واختلاط الأجناس ، وتفاعل الأذواق والأهواء . كان التخطيط العلمى يتم فى البصرة فى أوساط مختلفة متعارضة لكل اتجاه : ولكل ماضيه وأساسه الذى يقوم عليه »[٣] .

أثرت الحياة العقلية فى أدب هذا العصر بحيث وجدت ألفاظ الفلاسفة والمتكلمين ومصطلحاتهم فيه ، ويعود الفضل فى هذا إلى المعتزلة الذين قال فيهما أحد الدارسين إنهم عملوا على « تعقيل » الشعر[٤] ، ثم إلى غيرهم « من الفقهاء والنحاة وأصحاب المذاهب والعقائد فى قياسهم وقواعدهم ومنطقهم وفلسفتهم من العلماء الذين كانوا يلتقون بهم فى المجالس والمساجد والمجتمعات العامة يستمعون ويناقشون »[٥] .

ومن الأمثلة على ذلك لفظة (الجوهر) فى قول سلمة بن عياش[٦] :

ألا يا جوهر القلب لقد زدت على الجوهر

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة ١ / ٣٠١ والشعر فى بغداد / ١٧١ وما بعدها ومن حديث الشعر والنثر / ٥٢ – ٥٣ .

(٢) الحياة الأدبية فى البصرة ٣٩ – ٥٠ ومن حديث الشعر والنثر ٣٥ .

(٣) الحياة الأدبية فى البصرة ١١٩ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ٣٧٢ – ٣٧٣ .

(٥) حياة الشعر فى الكوفة ٢ / ٦٢١ – ٦٢٢ ثم انظر ١ / ٢١١ – ٢١٥ أيضاً .

(٦) الأغانى (ساسى) ٢١ / ٨٦ .

وألفاظ (الجزء) و (الانتهاء) و (التوليد) فى أبيات لأبى نواس سيأتى ذكرها [١] .
وقد أورد ابن قتيبة لأبى نواس الأبيات التالية فى هجاء مغن اسمه زهير :

قُلْ لزهير إذا حدا وشدا ... أقلل وأكثر فأنت مهذارُ
سَخُنْت من شدة البرودة حـ ... ـتى صرت عندى كأنك النار
لاَ تَعْجب السامعون من صفتى ... كذلك الثلج بارد حار

ثم علق عليها بقوله : « وهذا الشعر يدل على نظره فى علم الطبائع لأن الهند تزعم أن الشيء إذا أفرط فى البرد عاد حارًّا مؤذياً »[٢] وقال : « وكان أبو نواس متفنناً فى العلم ، قد ضرب فى كل نوع منه بنصيب ، ونظر مع ذلك فى علم النجوم ، يدل على ذلك قوله :

ألم تر الشمسَ حلَّت الحمَلا ... وقام وزن الزمان فاعْتـــدلا
وغنَّت الطير بعد عجمتها ... واستوفتِ الخمر حَوْلها كَمَلا

وكان بعضهم يذهب إلى أنه أراد للخمر حولا منذ جرى الماء فى العود ، وجعل ذلك الماء هو الخمر ، لأنه يصير عنباً فيعصر ؛ أما هو فله فيه تفسير آخر [٣] .

أما عن أثر الثقافات الأجنبية المختلفة فى الثقافة العربية فليس من شك أنه كان لكل منها نصيب ولكنه يختلف من موضوع لآخر . ويبدو أن التأثير الفارسى الأدبى كان أقل بكثير بالقياس إلى التأثير الاجتماعى الذى خلفته الحضارة الفارسية فى المجتمع الإسلامى . كما أن ما ترجم من تلك الثقافات فيما يتعلق بالناحية الأدبية ووصل إلينا عن طريق المصادر القديمة لا يكاد يذكر إلى جانب ما ترجم من الكتب العلمية والفلسفية وغيرها [٤] .

---

(١) أخبار أبى نواس – لابن منظور ١ / ١٣ .
(٢) الشعر والشعراء ٢ / ٨٠٢ .
(٣) المصدر السابق ٢ / ٧٩٨ – ٧٩٩ .
(٤) يراجع فى هذا الموضوع : ضحى الإسلام ١ / ١٨١ – ١٩٥ و ٢٨٠ – ٢٨٣ و ٢٤٦ – ٢٥١ والعصر العباسى الأول ٩٥ – ٩٦ .